# بناء الممالك

## درس في حياة الدكتور بينس واعماله

(تتألف جمهورية تشكوسلوفاكيا (وطن الدكتور بينس Benes) من خمس مقاطعات هي بوهيميا وموراڤيا وسيليزيا وسلوفاكيا وروثينيا ومساحتها معاً ١٤٢ ٥٧٥ كيلومتراً مربعاً وسكانها نحو ١٤ مليوناً وهم مزيج من عناصر مختلفة اكبرها عنصر التشك وعددهُ سبعة ملايين ثم عنصر السلوفاك وعددهُ نحو ثلاثة ملايين . وللتشك تاريخ مجيد في العلم والفلسفة والآداب

والبلاد يحدها النمسا والمجر ورومانيا جنوباً وبولونيا والمانيا شمالاً وهي غنية بحاصلاتها الزراعية والمعدنية والصناعية . فقد بلغت الاراضي الزراعية فيها نحو ١٧ مليون فدان سنة ١٩٢١ وفيها من الغابات ما مساحتهُ نحو مليون فدان وفيها معامل كثيرة لصنع الورق والخزف الصيني والزجاج واصناف الاثاث وخصوصاً كراسي الحيزران ونسج القطن والصوف والكتان وصنع الادوات المعدنية كالانابيب والمسامير والقؤوس والمجارف والقاطرات وانواع الاتوموبيلات للركوب والنقل والحراثة

ولا يعلم تماماً متى جاء التشك الى بوهيميا واستوطنوها لكن علماء التشك يرجحون أن بعض القبائل التشكية كان تقطن بوهيميا قبل المسيح بخمسمائة سنة كلمة مستقلة . وفي القرن الخامس عشر انتخبت الامة التشكية اميراً من بيت هبسبرج ملكاً عليها لكن آل هبسبرج لم يعاملوها بالحسنى فثارت عليهم في اوائل القرن السابع عشر ولكن ثورتها اخمدت

اما تاريخ تشكوسلوفاكيا بعد انسلاخها عن النمسا فظاهر في الكلام على الدكتور بينس واستاذهِ الرئيس ماسريك وزملائهما ملخصاً عن مقالة للمستر لوكهارت في الفورتنيتلي رڤيو ولا غرو فتاريخ كل امة انما هو تاريخ نوابغها)

من الامور المشاهدة في التاريخ ان الحروب الكبيرة تعقبها غالباً سنوات من مرارة الفشل وخيبة الامل تشترك فيها الامم الغالبة والامم المغلوبة . فلا تكاد تخبو ثورة العواطف الوطنية التي ولدتها الحرب حتى يأخذ الناس يدركون ان الثروة الطائلة التي بُددت في الحرب لا يستطاع جمعها الاَّ في سنوات كثيرة من العمل

المتواصل والجهد الكبير فتقوم فيهم نزعة قوية لانتقاد النظام العمراني الذي يكتنفهم وخصوصاً ما استجدَّ فيه وما يقوم عليه من اتفاقات ومعاهدات. فيملي الرأي العام بعض الرجال الذين كانوا بالامس نسياً منسيًّا ويضع الى الحضيض القادة والزعماء الذين كانوا يحسبون من قبل بين الخالدين. ولا تشذ حالة العالم الحاضرة عن هذه القاعدة التاريخية. فالرئيس واسن هبط من ابرج المجد بين ليلة وضحاها وكثيرون من القواد الذين كان يعدّون اثناء الحرب بين النوابغ العظام اصبحت مقدرتهم موضوعاً للظن. وما على الباحث الاَّ المرور في برلين وميونيخ ليقف على الرأي الذي يراهُ الالمان في لودندورف وزملائه فكثيرون من الالمان يضعون قوادهم موضع اللوم في انكسارهم الاخير. على ان اكبر مثال لتقلص مجد الرجال في هذا العصر هو هبوط لويد جورج الذي هوى الآن كنيزك من مراكز الالهة الى مقاعد البرلمان العادية ذلك الهبوط الذي أدهش حتى اعداءهُ

لذلك اذا بحثنا في اوربا الآن لا نجد فيها اكثر من عشرة رجال او اثني عشر رجلاً من الذين اضافوا شهرة جديدة الى شهرتهم او رفعوا لتفسهم مقاماً سامياً بعد ان كانوا قبيل الحرب لا يعرف بهم احد. ومن هؤلاء رجل لم يكن معروفاً قبل الحرب الكبرى وهو الآن رئيس وزراء جمهورية صغيرة لا تكاد تذكر مرة في التلغرافات كلما ذكرت احدى الدول الكبيرة مراراً وهو الدكتور ادورد بينس Benes الذي بنى لهُ في السنوات الخمس بعد الحرب الكبرى مقاماً رفيعاً ونال شهرة بعيدة هو جدير بهما. فما هي مميزات هذا الاستاذ التشكي القصير القامة الحديث السن ولكنهُ بعيد النظر غزير الحكمة وما هي الصفات التي جعلت من اسمهِ في الشهور الاخيرة علماً مشهوراً في الاندية السياسية؟ ما هي المقدرة الفائقة التي استطاع بها ان يستولي على رجال اكبر منهُ سنًّا رجال يمثلون دولاً كبيرة قوية لا تحسب دولتهُ في جانبها شيئاً؟

١

ولد الدكتور ادورد بينس في ٢٨ مايو (ايار) سنة ١٨٨٤ في بلدة بيوهيميا كان ابوهُ فلاحاً فيها. ولم يكن والدهُ في سعة من العيش تمكنهُ من تعليمهِ التعليم الكافي لكنهُ كان كسائر الشعب التشكي غيوراً على تعليم ابنائهِ وتلك الغيرة حفظت اللغة التشكية من الاندثار مدة ثلاثمائة سنة فبذل ما في وسعهِ وارسل ابنهُ

الى المدرسة العالية ثم الى الجامعة التشكية في براغ وكان استاذهُ فيها ماسريك (رئيس الجمهورية التشكية الآن) فنشأت بينهما علاقة ودية لا تزال اواصرها شديدة الى الآن ويعود اليها كثير من نجاح بينس الاول في ميدان السياسة كما سيجيء . ولما اكمل دروس السنة الاولى في الجامعة اشار عليهِ استاذهُ ان يذهب الى فرنسا ليتم دروسهُ في جامعاتها فذهب الى باريس سنة ١٩٠٥ وهو لا يملك سوى نفقات السفر منحتهُ اياها جمعية لتعليم الشبان في براغ . على انهُ اقنع محرر احدى الجرائد التشكية في براغ ان في استطاعتهِ مراسلة جريدتهِ من باريس فاستطاع بذلك ان يقوم بمعيشتهِ . وقضى في باريس سنتين يحضر دروساً في مدرسة السوربون وفي اكادمية العلوم السياسية . وكانت حياتهُ هناك كثيرة المصاعب والمشاق لكنهُ استفاد منها اذ راض نفسهُ على تحملها وتذليلها وذلك ما يجعلهُ الآن من اقدر الرجال على العمل المتواصل دون ان يني او يكل

كان اجتماعهُ الاول بالاستاذ ماسريك قد حرّك في نفسهِ العاطفة الوطنية ودفع فيهِ حبّ العمل لتحرير شعبهِ من نير التمسويين فجعل يستعدُّ لذلك العمل الكبير . وبعد ان درس ثلاث سنوات في فرنسا مُنح لقب دكتور في الشرائع سنة ١٩٠٨ من جامعة ديجون وكان موضوع رسالتهِ المسألة النمسوية والمسألة التشكية — وهي بحث في الامم الصقلبية في النمسا ومنازعها السياسية . وسافر تلك السنة الى لندن وجعل يدرس فيها اللغة الانكليزية ويتوسع في علم الاجتماع (السيولوجيا) وعاد الى براغ في اواخر ١٩٠٨ فمنح لقب دكتور في الفلسفة من جامعة براغ وانتهت بذلك حياتهُ كطالب وصار في عداد الاساتذة اذ عين استاذاً لعلم الاقتصاد في المعهد التجاري التشكي سنة ١٩٠٩ ثم محاضراً في علم الاجتماع في جامعة براغ سنة ١٩١٢ . واكثر من الكتابة في اشهر المجلات والجرائد التشكية في مواضيع كثيرة تختلف بين موضوع « المرأة الفرنسوية » وموضوع رجال الاكليروس الذين حاربهم هو وسائر الاساتذة بكل ما أوتيهِ من عزم وقوة . ولكنهُ مع تعدد اشغالهِ وتنوعها لم يغفل عن الغاية الكبرى التي وقف حياتهُ لها بل كان دائماً يستعد ليوم رأى ان لا بدّ من مجيئهِ

جاء ذلك اليوم في شهر يوليو سنة ١٩١٤ . كان الليل المظلم في حياة بينس وشعبهِ قد أخذ ينقشع عن فجر باهر فرأى انهُ قد جاء يومهُ المنتظر . لكن الامة

التشكية كانت في موقف حرج جدًّا . ففي الايام الاولى من الحرب الكبرى اشرف الالمان على لياج وانقرس وانتصروا في المونز وكانت جيوشهم عدة بخمرة النصر تسير من معركة الى اخرى والنصر حليفها واصبح الشاة حلف اوربي متوسط النفوذ فيه لالمانيا قريب التحقيق . فبثت الحكومة النمسوية العيون والارصاد تراقب زعماء التشك مراقبة شديدة . اما هم فكانوا في حيرةٍ وارتباك فاذا انتصرت المانيا وحلفاؤها كانت العاقبة عليهم وبالاً لانهم كانوا يهمسون بالانتقاض على النمسا واذا كان النصر حليف الحلفاء فمن الواجب الاسراع في وضع خطةٍ سياسية رشيدة يستلفتون اليها انظار الساسة من الحلفاء حين يعقد الصلح . خفقت قلوب الكثيرين منهم بالامل والرجاء ولكنهم آثروا التربص والانتظار ليروا عمَّا ينكشف لهم وجهُ الحرب العبوس . لكنَّ بينس لم يتردد ولم يرتبك . كان شعارهُ « سر على المصاعب الى المجد » نهض العراك السياسي بكل ما في نفسهِ الفتية من العزم والاقدام غير مكترث لما يحفُّ بهِ من المخاطر الجسيمة . وكان في تشكوسلوفاكيا جمعية سياسية سرية فانتظم فيها وصار من كبار اعضائها العاملين وجازف بحياتهِ مرتين في سنتي ١٩١٤ و ١٩١٥ اذ سافر الى سويسرا للمفاوضة مع الاستاذ ماسرك فكان صلة بين ذلك الاستاذ البعيد عن وطنهِ وسائر الزعماء المتخلفين في بلادهم . واضطرَّ اخيراً ان يغادر بوهيميا في ليلة ظلماء من ليالي سبتمبر سنة ١٩١٥ والبوليس النمسوي في اثرهِ للقبض عليهِ لكنهُ نجا وجاء باريس

جاءها اولاً طالباً للعلم وجاءها الآن بعد عشر سنوات مضت مندوباً عن امة تجاهد في سبيل استقلالها ليتولى الدفاع عن قضيتها . وانهُ ليصعب كثيراً ان ندرك الآن ما كان عليهِ عملهُ من الصعوبة في بادىء الامر لان اكثر السياسيين والصحافيين لم يكونوا يعلمون ما هي الامة التشكية ولا ادركوا ما يكون لها من الاثر في الحرب اذا هي انضمَّت الى الحلفاء . والسبب في ذلك ان جميع الانظار كانت متجهة آنئذٍ الى ميدان الحرب الغربي حيث يقرر مصير الدول المتحاربة . فمن هو هذا السياسي الشاب الذي يجرأ في ساعة من اشد ساعات الحرب هولاً وظلمة ان يقرع الابواب طالباً الدخول الى مجالس الحلفاء حيث القواد اليائسون والساسة المتمضغون ؟ ومضت عليهِ شهور طويلة من الانتظار الممل لكنَّ عزمهُ وثباتهُ ذلَّلا كل صعوبة قامت في وجههِ فوجد انصاراً لهُ في الاستاذ دانس الفرنسوي والدكتور سيتن

وطسن والمستر وكهام ستيد محرر التيمس آنئذٍ فاخذوا بيده ومهدوا لزعماء التشك السبيل لدخول مجالس الحلفاء العليا حيث بسطوا قضيتهم. وبعد ذلك تسنى للاستاذ ماسرك زعيم التشك الاكبر ان يقابل المسيو بريان رئيس الوزارة الفرنسوية يومئذٍ فكانت مقابلة ودية اسفرت عن وعد المسيو بريان لهُ باسم الحكومة الفرنسوية ان يمد يد المساعدة الفعلية للامة التشكية. فتألف بعد ذلك المجلس التشكي الوطني وعُيّن الدكتور بينس سكرتيراً لهُ

اما وقد تم لبينس ذلك فارهف قلمهُ للعمل. كانت معارك الصوم قد انتهت بفشل الحلفاء او عدم انتصارهم الانتصار الذي كانوا يؤملونهُ. وما ولّدتهُ تلك المعارك من الامل بانهاء الحرب في مدة وجيزة اخذ يزول وبدا لجميع الواقفين على حقائق الامور ان نهاية الحرب بعيدة — في تلك الاثناء ظهر كتاب في باريس فاستلفت نظر الساسة المتحالفين وموضوعهُ « اخربوا النمسا » فكان تأليف ذلك الكتاب خطوة كبيرة خطاها هذا الاستاذ التشكي الشاب نحو تحقيق احلامهِ بانشاء دولة تشكية مستقلة. قال في ذلك الكتاب للحلفاء ما خلاصتهُ « يجب ان تخربوا النمسا وتهيضوا جنحتها فتلك سبيلكم الاولى للنصر الاكيد. اطعنوا المانيا في اضعف مقاتلها وانهضوا الشعوب الصقلبية المستعبدة في اوربا الوسطى. اقيموا حاجزاً بين المانيا وحلفائها من دول صغيرة مستقلة واجعلوا بين المانيا وبين بلغاريا وتركيا فيبيد الحلم بانشاء الامبراطورية التوتونية كما يبيد الدخان في العاصفة ». كانت تلك الخطة رشيدة في وضعها مناسبة للزمن الذي ظهرت فيهِ فاقبل عليها ساسة الحلفاء كاداة جديدة للانتصار على المانيا وللحال زالت المصاعب التي كان يلاقيها الزعماء التشكيون في سبيل قضيتهم. وانقضى دور الكلام وعقبهُ دور العمل فتألفت فرق كثيرة من متطوعة[1] التشك في فرنسا وايطاليا وروسيا وانشأت تحارب جنباً الى جنب مع جيوش الحلفاء وفي سنة ١٩١٧ اعترف الحلفاء بالمجلس الوطني التشكي اعترافاً رسمياً

ودعا الدكتور بينس في اوائل سنة ١٩١٨ مؤتمراً للشعوب المستعبدة في اوربا الوسطى. التأم هذا المؤتمر في رومية وافتتحهُ السنيور اورلندو رئيس الوزارة

(١) جاء في دائرة المعارف البريطانية ان جنود التشك الذين حاربوا مع الحلفاء زاد عددهم على مائة الف في اواخر الحرب

الايطالية حينئذٍ وتلاهُ الدكتور بينس على انهُ ما كاد يقف ويمشي الى دكة الخطابة حتى وقف جميع الحاضرين اجلالاً لجهادهِ وجعلوا يهتفون لهُ ولتشكوسلوفاكيا. من يستطيع ان يتصور تلك الموجة الهائلة من العواطف الوطنية التي اكتسحت ذلك المؤتمر! شعوب حُسبت في عداد الاموات مئات من الاعوام اخذت ترى آمالها الوطنية قريبة التحقيق

على ان الدكتور بينس لم تبدُ عليهِ علامات التهيج والانفعال بل قرأ خطابهُ قراءة بصوت جلي فابان فيهِ ما اشتهر بهِ من رجاحة الفكر وصحة القياس وبلاغة التعبير الصفات التي اكتسبت لهُ شهرة واسعة فلقبهُ الايطاليون بكافور[٢] تشكوسلوفاكيا وقال عنهُ العارفون انهُ ارجح انسياسيين حكماً في اوربا الوسطى او في اوربا كلها

وحيما انتهى من خطابهِ هتف لهُ الحاضرون كثيراً اعترافاً بانهُ قوة جديدة قامت بينهم تسدد خطواتهم الى المنهج القويم

وكانت نتيجة هذا المؤتمر ان الحكومة الايطالية اعترفت باستقلال تشكوسلوفاكيا وفي ٩ اغسطس ١٩١٨ اعترف الحلفاء بالمجلس الوطني التشكي ممثلاً قانونياً للحكومة التشكوسلوفاكية العتيدة. وهكذا استطاع ذلك الفتى الذي كان طالباً كسائر الطلبة قبل عشر سنوات ان يكوّن دولة من فكرة وطنية سديدة بغير سلاح سوى نشاطهِ وعزيمتهِ ووطنيتهِ وعلمهِ. على انهُ يجب الا ننسى الاستاذ ماسرك في هذا الجهاد الوطني. انهُ ادرك ما لتلك الحرب من الشان في استقلال امتهِ قبل الدكتور بينس وما طبع عليهِ من بعد النظر ورصانة الاخلاق وانكار الذات جعل من تلاميذهِ واتباعهِ قوة لا يستهان بها. ففكرهُ كان الفكر الذي نظم الحركة وسيّرها ولكن السيف الذي فتح امامها سبيل التحقيق كان سعي بينس. واعترافاً بخدماتهما هذه انتخب الاستاذ ماسرك رئيساً للجمهورية التشكوسلوفاكية والدكتور بينس وزيراً لخارجيتها فاستلم هذا مقاليد منصبهِ وهو اصغر الوزراء سنّاً في العصور الحديثة

وسيأتي الكلام في الجزء القادم على خلاصة اعمالهِ بعد توليهِ هذا المنصب الخطير

---

(٢) الكونت دي كافور اكبر الساسة الطلياني في القرن التاسع عشر الذي تمت على يديهِ وحدة ايطاليا السياسية بعد ان كانت مقاطعات وولايات مستقلة يتناقض بعضها مع بعض للزعامة. ولد سنة ١٨١٠ وتوفي سنة ١٨٦١